أمتى والحضارات الخلاقة

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا » .

وسوف أظل أصرخ مؤمنًا بتلك العروبة ، ومؤمنًا أيضًا بأنها اللغة الوحيدة التى سوف تسمح لأمتى بأن تجد مكانتها تحت الشمس فى عالم القرن الحادى والعشرين .

هل هو نوع من التعصب الأعمى؟ هل هى كبرياء ساذجة تأبى علينا إلا أن نتمسك بذلك الذى لا نستطيع تغييره ؟ هل هو نوع من التحدى إزاء موجات التشكيك التى خرجت علينا منذ قرابة سبعة قرون متلصصة خافتة فى أول الأمر قائمة صريحة وقحة فى هذا العصر الذى نعيشه ؟

كلا ! إن منطق العروبة خليط من العقل والتجرد من جانب ، والعاطفة والإيمان من جانب آخر ، ولغة المصلحة والمنافع من جانب ثالث ، سوف يجد أيضًا على هذه الصفحات أولئك الذين تعودنا أن نطلق عليهم رجال « الزفة السياسية » وفعلهم ما يرضى شهواتهم ، ولكن مهلاً يا بنى ، فإن منطق العروبة السياسية المتعدد الأبعاد المتنوع المداخل ، سوف يفيض فيغرق الجميع كل باللغة التى لا يفهم سواها .

مما لا شك فيه أن التساؤلات التى تطرحها العروبة السياسية عديدة ، منها تساؤلات لابد وأن تكون الإجابة عليها واضحة صريحة وقاطعة :

أولاً : من هو العربى ؟

ثانيًا : أين حدود الوطن العربى ؟

ثالثًا : لماذا لغة الوحدة العربية هى منطق التعامل المعاصر ؟

رابعًا : أين العروبة من الإسلام ؟ ماذا قدمت العروبة للإسلام بعبارة أخرى ؟

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 91 ، فى 4 شباط - مارس - 1985 ، ص 26 - 28.

obeikandl.com

خامسًا : وماذا قدم الإسلام للعروبة ؟

« أسئلة خمسة ، يجب أن نقدم لكل تصور قومى بالإجابة عليها؛ لأن هذه الإجابة هى وحدها التى سوف تسمح بأن نصل إلى تحديد **مضمون القومية العربية بدقة وصرامة**. ورغم ذلك فلا يجوز أن نستهين بالإجابة على هذه التساؤلات ، إنها فى حاجة إلى معاناة معقدة، من حيث العناصر، ومتابعة فكرية متعددة من حيث الحلقات.

على أن نقطة البداية أو المقدمة التى يجب أن ننطلق منها تتمثل فى **العودة إلى التاريخ نستلهم منه موضع حضارتنا العربية فى نطاق الحضارات الأخرى، لقد سبق ورأينا أن أمتنا هى أمة القيم، وأن هذه الأمة هى وحدها صاحبة الوظيفة الحضارية. فلنكمل هذا الإطار بأن نطلق الصفة الثالثة بأن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى وحدها الحضارة الخلاقة**[1] .

هل تعتقد يا بُنَى أننى أبالغ ؟ إذن فتعال معى نستعيد صفحات التاريخ ، ونطرح هذا التساؤل : **متى تكون الحضارة كبرى وخلاّقة؟ ما هى تلك الخصائص التى إذا توفرت فى حضارة معينة لاستطعنا أن نصفها بأنها حضارة خلاّقة قدمت للفرد وللإنسان ما هو فى حاجة إليه فأشعرته بتكامل الكيان الذاتى**، بتحقيق أهدافه فى الحياة الدنيوية والأخروية . باستطاعته فى أن يستخدم فى طمأنينة وثقة ما مكنته الطبيعة من قدرات وإمكانيات؟.

لو انطلقنا من التفكير المجرد العقلانى، ودون أن نتأثر فى هذا بعقيدة دينية معينة، أو بنعرة عصبية محددة، لكان علينا أن نمركز تحليلنا حول **خمسة عناصر أساسية هى التى أنتجت مفهوم التكامل الحضارى** الذى كان لابد وأن يفرض ذلك الإيقاع الذى بدوره يجعل من ذلك النظام أو تلك الحضارة موضعًا للإعجاب والاستحواذ . مم لا شك فيه أن الإنسانية عرفت الكثير من الحضارات التى سطرت صفحات ناصعة ، بغض النظر عن قوتها وضعفها . كذلك فإن كل حضارة لابد وأن تشعر وعن قناعة ما ، بأنها خير من غيرها. ولكن لو تركنا جانبًا هذه الناحية وتساءلنا بتجرد مطلق: ما هى الخصائص التى يجب أن تتوفر فى الحضارة لنستطيع أن نصفها بأنها حضارة كبرى وخلاقة؟ لاستطعنا أن نمركز حديثنا حول العناصر التالية ما يسمح باكتشاف وتبويب الحضارات الإنسانية:

أولاً: الطبيعة العالمية للحضارة.

ثانيًا: أن تؤسّس الحضارة وجودها على قوتها الذاتية .

ثالثًا: أن تسعى لبناء نظام متكامل متميز من الأخلاقيات والمثاليات.

رابعًا: منطق دعوتها هو العملية الاتصالية.

---

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ، ريجديد هونكه ، ترجمة د . كمال الدسوقى وآخرون ، دار الفكر - بيروت .

خامسًا: عنصر الاستمرارية والثبات، بغض النظر عن النجاح من عدمه، وعن التقدم من عكسه.

الحضارة الخلاقة هى الحضارة العالمية : إنها لا تخاطب فردًا بعينه، ولا فئة بعينها ولا تعيش عصرًا بعينه، إنها تتجه إلى الإنسان ، حيث لا تتقيد لا من حيث المكان ولا من حيث الزمان. كذلك هى تقوم على أساس بنيانها الذاتى، وقوتها الذاتية . وهذا يعنى أنها لا تستعين بالآخرين ، ولا يعنى ذلك أنها لا تقبل خبرة الآخرين، ولكن الذى يعنينا أن نتذكره بهذا الخصوص أنها لا تطلب من الآخرين أن يؤدوا دورها.

فالحضارة الأنجلو سكسونية مثل واضح للتعبير العكسى لهذا المتغير : **حاربت بأبناء الهند، وعاشت تمتص دماء الآخرين** ، وكان من الطبيعى من ثم أن تكون هزيمتها، ومن ثم اختفاؤها من عالم الحضارات الكبرى فى لحظة انتصارها العسكرى . كذلك **فإن جميع الحضارات الكبرى الخلاّقة تبرز حقيقتها المعنوية عندما نرى كيف ارتبطت تلك الحضارة بنظام متكامل من المثاليات والأخلاقيات ، فالحضارة اليونانية**[1] ، جعلت من الفلسفة والحكمة محور الكمال، وغلّفت ذلك بالجمال والتناسق. والحضارة الرومانية[2] ألّهت القوة وجعلت مفهوم السيطرة والعنف والدماء هو منطق تعاملها ونظرتها للوجود الإنسانى، لا فقط على مستوى الجماعة، بل وعلى مستوى الفرد أيضًا. يأتى فيكمل ذلك ويثير نوعًا من التساؤل ويفرض العديد من علامات الاستفهام ، **منطق التعامل فى هذه الحضارة: هل هو الإكراه أم الإقناع؟ الحضارة الحقيقية التى تستطيع أن ترسب معالم استمراريتها هى التى تجعل منطلقها الإقناع والاقتناع . الخوف والرهبة لا يخلقا العلاقات الطبيعية** ولابد أن يتقلص عندما يختفى مصدر ذلك الخوف، وتلك الرهبة . والإقتناع هما المحور الحقيقى لخلق التماسك وتدعيم التعاون ونشر الروابط ، كل هذا يقود إلى حقيقة **المتغير الخامس وهو عنصر الاستمرارية** ، فالحضارة التى تأتى وتختفى لابد وأن يصيبها عنصر الفناء . قد تضعف فى لحظة معينة ثم تعود فتشتد فى مرحلة أخرى، **ولكن أن تنقرض إلى غير رجعة، وأن يُمحى**

(1) « قصة الحضارة » مرجع سابق .

(2) الحقيقة أن إطلاق لفظة حضارة فيه تجاوز لنقل مدنيات اليونان ؛ أثينا فى عهد بركليس تشارلز روبنصن ترجمة أنيس فريحه ، بيروت 1963 ؛ تاريخ الحضارة الهيللينية ، أرنولد توينبى ، ترجمة رمزى جرجس ، القاهرة 1963 ؛ قصة الحضارة ج 2 ، المجلد الثانى ؛ حياة اليونان ، ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ؛ التاريخ اليونانى أ . د . عبد اللطيف أحمد على ، دار النهضة العربية، القاهرة 1963 ؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن على الندوى ، بيروت ؛ جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، دار الشروق ؛ أوربا منذ أقدم العصور ، اليونان د .جمال عبد الهادى وآخرون ، دار الشروق جدة .

كل ما يعبر عن آثار وجودها الحى فإن هذا يعنى أن تلك الحضارة ينقضها شىء. لا يعنينا البحث عن ذلك العنصر الغائب. **ولكن الذى يعنينا أن نؤكد عليه أن الاستمرارية حتى فى حالة الضعف هى علامة القوة**[1].

ما هى الحضارة الأخرى التى جمعت هذه العناصر الخمسة، سوى حضارة آبائى وأجدادى ؟ الحضارة العربية الإسلامية.

أين حضارة آبائى من النماذج الأخرى المختلفة للحضارات الكبرى؟.

الحضارة العربية الإسلامية آمنت واتصفت بخصائص ثلاث لم تستطع أية حضارة كبرى أخرى أن تجمعها فى متغيرات وظيفتها الحضارية؟:

أولاً: منطق الانفتاح الذاتى.

ثانيًا: منطق الحوار الحضارى.

ثالثًا: الاستمرارية التاريخية.

حضارة آبائى حضارة منفتحة، تقبل أن تتعلم من كل حضارة أخرى. هى لا تفرض فقط المنطق والعقل، بل هى تفرض على الإنسان أن يعمل فقط بعقله، وأن يطلق قدراته الذهنية لا فقط لاكتشاف الحقيقة، بل ولإصلاح ذاته عليه أن يحاول بجميع قدراته الذهنية أن يرتفع بسلوكه إلى النموذج المثالى الذى اكتشفه بعقله ومنطقه. وهو يستطيع أن يكتشف الحقيقة ، بل ويجب أن يبحث عنها فى جميع أنواع المعرفة وفى أى موضع وجدت فيه تلك المعرفة، وهو يفخر العربى بأنه تعلم من فارس وبيزنطة ، ويعلن الشافعى أنه عقب أن عاش بمصر غير مذهبه، ولا يتردد البيرونى فى أن يحث أبناء جيله على أن يذهبوا ليتعلموا الخبرة من الهند.

الانفتاح إنما يعنى احترام الآخرين، والنظرة إلى كل فرد على أنه إنسان وكل إنسان على أنه قيمة فى ذاته، بغض النظر عن لونه أو جنسه، هل نحن فى حاجة إلى تقديم نماذج وأمثلة لتأكيد هذا المعنى ودلالته ؟ لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، والدعوى تتجه إلى كل إنسان ، والخطاب يبدأ : «يا أيها الناس» . مرد ذلك فى حقيقة الأمر إلى أن تعاليم

(1) الامبراطورية الرومانية ، م . ت . تشارلز وورث ، ترجمة رمزى عبده جرجس ، مراجعة د .محمد صقر خفاجة ، القاهرة ؛ قصة الحضارة ، ج 2 – المجلد الثالث ، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية ، ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، الإدارة الثقافية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة 1963 ؛ روما (عصر الجمهورية) د . عبد اللطيف أحمد على ، دار النهضة القاهرة 1961 ؛ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، أ.د . جيبون ، ترجمة محمد سليم سالم ، مراجعة محمد على أبو دره ، ج 3 ، القاهرة ، الجزء الثانى من نفس الكتاب ، ترجمة لويس اسكندر مراجعة نجيب هاشم .

دينى تقوم على أساس اعتبار الإنسان أينما كان خليفة الله على الأرض : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ [البقرة : 30] وهى لذلك هذه التقاليد كان لابد وأن تقوم على مبدأ الحوار الحضارى، وأن تجعل منها منطلقها فى فهم الوجود الإنسانى ، وتنظيم التعامل السياسى. إن **قصة الحوار الحضارى فى التاريخ الإسلامى لم تكتب بعد ، ولكن فلنتذكر بعض الملامح من الوقائع التاريخية المتداولة :**

فهناك حركة رُسُل محمد ﷺ لدعوة الدول المجاورة إلى الدخول فى الدعوة الإسلامية.

وهناك قصة القاضى الباقلانى وحديثه وسفارته إلى بيزنطة .

وهناك ذلك الحوار المشهور بين الخليفة الكامل الأيوبى و « فريدريك » الثانى ملك صقلية.

وهناك **رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص**. ورغم أننا سوف نعود إلى هذه النماذج كل على حدة فيما بعد ، نحللها لنكتشف منها الرحيق الحقيقى لحضارة آبائى. إلا أنه يكفى ولو مؤقتًا أن نستمع إلى **عبارة وردت على لسان ابن تيمية وهو يكتب إلى الملك غير المسلم، والذى لا يقبل الإسلام : «نحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة . فإن أعظم ما يحمد الله نصيحة خلقه ، ولذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين. ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه، فإنه لابد للعبد من لقاء الله. ولابد وأن الله سيحاسب عبده، فالدنيا أمرها حقير، وكبيرها صغير، وغاية أمرها يعود إلى الرئاسة والمال، وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون الذى أغرقه الله فى اليم انتقامًا منه، وغاية ذى المال أن يكون كقارون الذى خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل بها إلى يوم القيامة ، لمّا أذى نبى الله موسى..»**.

ويعود عقب ذلك إلى موضوع آخر، فيذكرنا بحقيقة وجوهر تلك الحضارة ، عندما يقول : «لما خاطبتُ ملك التتار فى إطلاق الأسرى . فسمح بإطلاق المسلمين . قال لى -أى: ملك التتار- : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلقون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى هم أهل ذمتنا.. لا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة..»[1] .

ولكن هل تستطيع الحديث عن الاستمرارية التاريخية ، بصدد الحضارة العربية الإسلامية ؟ قد يبدو لأول وهلة أن الواقع العربى يُعبّر عن انقطاع خلافًا للتراث الدينى الإسلامى، وأن هذا المجتمع منذ نهاية العصر العباسى الأول، أو على أكثر تقدير المجتمع

(1) « ابن تيمية : حياته وعصره وآراؤه وفقهه » محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة 1952.

العربى منذ الفتح العثمانى، قد انقطعت صلته بماضيه. على أن هذا غير صحيح.

وهو غير صحيح على الأقل فى شقين : **من حيث الوعى الجماعى** الذى ظل ثابتًا فى تعلقه بقيمه التاريخية، وتقاليد الممارسة فى حياته الخاصة، **ومن حيث اللغة** التى ظلت مسيطرة ومتماسكة رغم جميع الغزوات الفكرية والحضارية، وأنواع التسلل إلى المنطقة، ولنتذكر على سبيل المثال، ما حدث فى شمال إفريقيا، وفى لبنان، والذى سرعان ما تبخرت نتائجه بالعودة إلى الحظيرة المعنوية للعروبة اللغوية وللتمسك بلغة القرآن[1].

الواقع الذى تعيشه المنطقة العربية، هو استمرارية للإطار الاجتماعى الذى عاشته المنطقة قبل ذلك، وهذه الاستمرارية رغم أنها تتضمن سعيًا إلى التجديد، إلا أنها ثابتة فى جميع عناصر الوجود العربى، متغلغلة فى جميع عناصر التطور الذاتى، منتشرة فى جميع أجزاء الجسد العربى.

وإحدى النواحى التى يطرحها الواقع العربى هو علاقة العقل الجماعى بنظام القيم التقليدية، ففى مجتمع كالعربى الإسلامى، استطاعت نظم القيم الدينية أن تترسب فى الوعى الجماعى، وأن تستوعب فى الذات الفردية خلال قرابة سبعة قرون، ما كان يمكن لعملية الغزو الخارجية، والتى أخذت شكل كماشة قادمة من الشرق على يد المغول ومن الغرب بفعل الحروب الصليبية، أن تمحوها أو تذيبها، الواقع الجديد الذى فرض على المنطقة وخلال الخبرات التالية والمتلاحقة، فرض على نظام القيم أن ينتقل ولو فى جزء هام منه من الشعور والوعى والممارسة، إلى اللاشعور والباطن وعدم الممارسة. رغم ذلك فقط ظل متوهجًا ينتظر اللحظة المناسبة ليتفجر كأسلوب للحياة.

الأحداث المتلاحقة زادت فى تعميق عملية الاستيعاب الداخلى، فعقبت الغزوات المتلاحقة من الشرق والغرب خضعت المنطقة لنوع جديد من التسلل هذه المرة باسم الإسلام عن طريق الفتح العثمانى. خلال هذه المرحلة الجديدة أصاب العقل الجماعى الهربى نوعًا من التمزق والانفصام بين الانتماء الحقيقى والقيم الحقيقية، والانتماء المصطنع الجديد، وما ارتبط به من قيم لا تعبر عن نموذجه التقليدى وإن كانت تزعم ذلك. ثم أعقب هذه الفترة - فترة الفتح العثمانى - موجة الاستعمار الأوربى، حيث أضحى الصراع عنيفًا صريحًا واضحًا، ولكنه ظل خلال فترة معينة فى الوعاء الذاتى المتستر، حيث المنطقة كانت قد

(1) إن الغزوة الفكرية عبر أجهزة الإعلام استطاعت أن تُكرس فى الوعى العربى عقدة تفوق الرجل الغربى، فصرنا نجد أسماء الشوارع وأسماء المتاجر وأسماء المدارس، بل وأسماءنا نحن الأشخاص العرب وقد تفرنجت، من دون قانون يحمى لغتنا كذلك الذى تصدره الدول المعتزة بكرامتها مثل فرنسا وألمانيا.

فقدت ثقتها فى الذات القومية بسبب ضربات الاستعمار، وقد ضخم من ذلك أن شطراً هامًا من أبنائها قد انتقل بلا حياء إلى الطرف الآخر، فى الصدام الحضارى متمسكًا بأهداف نظم للقيم لا موضع لها فى تقاليد وقيم المنطقة، لكن مجموعة الأحداث التى بدأت مع أوائل القرن التاسع عشر فى مصر ظلت تتسع دائرتها تدريجيًا ، رغم لحظات الهزيمة حتى وصلت المنطقة إلى خاتمة الربع الثانى من القرن العشرين ، فإذا بالوعى قد عاد إلى الذات ، وإذا بالعودة إلى نظام القيم التقليدية تصير إحدى متغيرات الوجود العربى.

إن عملية انتقال لتلك القيم من الباطن إلى الخارج، من اللاوعى إلى الشعور، من العقل الجماعى إلى المنطق الفردى، من التمويه والتستر، إلى الممارسة العلنية اليومية . ولكن ككل عملية إحياء ، فإن اليقظة تفرض التقلصات والتفاعلات ، هذه هى قصة الأحداث التى تعيشها المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، حتى انفجار الحرب العالمية الثانية، لتعلن بداية المرحلة التى نعيشها ، والتى لا نزال نصارع فى خِضَمِّها حتى هذه اللحظة.

مثل هذه الاستمرارية لا موضع لها فى أى نموذج آخر من النماذج الحضارية . **أثينا انتهت ودخلت ذمة التاريخ، رغم عظمتها الفكرية شعبًا ولغةً. الحضارة الرومانية**، أكبر الحضارات المسيطرة فى العالم الغربى وأعظمها قاطبة، دخلت **متحف التاريخ منذ فترة طويلة**، ولم تختلف عن النموذج اليونانى . هذه الحضارة العثمانية لم تعرف كيف تحافظ على ذاتها، ورغم أنها عاشت كالحضارة العربية، قيم الإسلام، الاستثناء الوحيد وهو فريد فى نوعه، هو النموذج الصينى، ولكن رغم ذلك فالفارق واضح بين: النموذج الصينى المغلق على نفسه، المتقوقع حول ذاته، أحاط نفسه بالسور العظيم أيضًا فكريًا ووظيفيًا. **النموذج العربى متفتح. مؤمن بالأخذ والعطاء، يسعى لنشر دعوته وعقيدته لخير الإنسانية، حتى ولو من خلال الجهاد وتقديم الذات على محراب التضحية فى سبيل أداء وظيفة حضارية** من الوظيفة السياسية للعروبة الحضارية .

ماذا قدمت العروبة للإسلام؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة؟ وكيف يمكن الدمج بينهما فى إطار فكرى واحد؟.

بنى.. لابد وأنك تتساءل فى خاتمة هذه الصفحات بدهشة وتعجب : كيف ؟ هل الأمة العربية هذه التى تلقى عليها كل صباح من جميع أجهزة الإعلام فى العالم صفحات القمامة، هذه الأمة التى أصبح قادتها مثلاً صارخًا للسذاجة والاندفاع والسطحية ، هل هى مدعوة لأن تؤدى وظيفة حضارية ؟.

نعم يا بنى، أمتك تمثل الحضارة الوحيدة الخلاّقة، فهذه الأمة أدت وظيفة حضارية

نسيها العالم، وهى التى فى عنقها أن تؤدى وظيفةأخرى فى الأجيال[1] القادمة . قال تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** [آل عمران : 110] .

متى سوف تؤدى تلك الوظيفة الحضارية الجديدة ؟ قد يكون فى الغد القريب وقد يتعين على الإنسانية أن تنتظر عدة أجيال، ليخرج من هذه الأرض من يقود الإنسانية المعذبة إلى الكمال. **ولن نستطيع أن نفهم هذه الحقائق، إلا لو عُدنا للتاريخ مرة أخرى لنسأله: ما هى وظيفة الوجود العربى فى التاريخ الحضارى؟ هناك وظيفة للدعوة الإسلامية تقمصتها العروبة الحضارية. هذه العروبة السياسية هى التى قادت الدعوة الحضارية التى أبلغها القرآن فأينعت وازدهرت ، وهى التى عليها أن تستعد للقيام بتلك الوظيفة مرة أخرى، لأن العالم المعاصر فى حاجة إليها.** تحليل هذه الوظيفة على ضوء استقراء التاريخ، هو الذى سوف يسمح لنا بالإجابة الشافية على تلك المجموعة من التساؤلات التى تنخر ضمير كل عربى : أين الإسلام من العروبة؟ وأين القيم الإسلامية من الوظيفة السياسية للعروبة الحضارية ؟ وماذا قدمت العروبة للإسلام؟ وماذا قدم الإسلام للعروبة؟ وكيف يمكن الدمج بينهما فى إطار فكرى واحد؟ .

ولكن مهلاً يا بنى ، فلا نزال فى بداية الطريق» .

(1) المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة .

obeikandl.com